

استدعاء الفضاء المدني العربي في الشعر الجزائري القديم - بكر بن حماد التاهرتي نموذجاً

.-

Invocation of the Arab urban space in ancient Algerian poetry - Bakr bin Hammad Al-Taherti as a model -

المشرف: فتوح محمود

بورحلة محمد*

جامعة تسمسيت،

جامعة تسمسيت،

مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة تسمسيت

mahmoud.fettouh@gmail.com

mohamed.bourahla@univ-tissemsit.dz

تاريخ القبول: ٢٠٢٤/٠١/٠٦

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٣/٠١/٠٤

النشر: ٢٠٢٤/٠٧/١٨

ملخص:

تعتبر المدينة من أهم الموضوعات التي اشتغل عليها الشعراء الجزائريين على غرار الشاعر بكر بن حماد التاهرتي مبرزين خصوصية البعد العربي، مقتدين بنظرائهم في الحارة الشمالية في الأندلس وكل ذلك كنتيجة لتطور فنون العمارة، وكذا الرقي الاجتماعي والحضاري آنذاك، فتجد الشاعر بكر بن حماد يقحم عديد المدن الجزائرية مثل: تيهرت وزواغة وجراوة ومدن العربية نذكر منها: البصرة وزويلة

ومن أهم ما تم التوصل إليه في هذا العرض: توظيف الشاعر بكر بن حماد التاهرتي لموضوع المدينة في عدة أغراض مثل: المدح، رثاء المدن، الهجاء، الوصف...، وكذا إبراز قدرة الشاعر على إقحام المدينة كموضوع من الموضوعات الشعر المعاصر في أغراض الشعرية القديمة مثل: المدح، رثاء المدن، الهجاء، الوصف...، وأخيراً اعتزاز الشاعر الجزائري وخاصة بكر بن حماد بانتمائه إلى كل ما هو عربي وذوذ عنه والافتخار به.

الكلمات المفتاحية: مدينة؛ فضاء؛ شعر؛ جزائري؛ بكر بن حماد.

Abstract :

The city is considered one of the most important topics that Algerian poets worked on, similar to the poet Bakr bin Hammad al-Taherti, highlighting the specificity of the Arab dimension, following the example of their counterparts in the northern neighbor in Andalusia, and all this as a result of the development of architecture, as well as social and civilizational sophistication at the time, so you find the poet Bakr bin Hammad entering many cities Algerian,

Among the most important findings in this presentation: the use of the poet Bakr bin Hammad al-Tahirti for the subject of the city in several purposes such as: praise, lamentation of cities, satire, description ..., as well as highlighting the poet's ability to involve the city as a subject of contemporary poetry in the purposes of poetry. Ancient such as: praise, lamentation of cities, satire, description..., and finally the pride of the Algerian poet,

KeyWords: city; space ; poetry ; Algerian ; Bakr bin Hammad.

المقدمة:

لقد تكرست فكرة المدينة في ثقافة الأديب الجزائري القديم، وتجلى ذلك في الأعمال الأدبية لعديد من هؤلاء المبدعين للتعبير عن خلجاتهم النفسية طورا أو لتشخيص أوضاع سياسية أو اجتماعية أطوارا أخرى، ومن بين هؤلاء الأدباء يبرز الشاعر بكر بن حماد التاهرتي والذي اتخذ من التشظيات الدلالية و المعرفة للمدينة مادة فنية دسمة يعضد بها نصوصه من أجل إقناع المتلقي بصواب فكرته، وانطلاقا من هذه المعطيات يتبادر لنا طرح الأسئلة التالية : هل وفق الشاعر بكر بن حماد في استحضار موضوعه المدينة بما يخدم سياقات نصوصه؟ وهل استطاع الشاعر إقناع المتلقي بحسن توظيفه لتيمة المدينة؟ هل استطاع الشاعر التحرر من سلطة القبيلة لصالح المدينة؟.

ومن الأهداف التي نريد بلوغها لدى مقارنتنا لدهاليز هذا العمل البحثي، هي الكشف عن أدب جزائري خالص كتب قديما ذو قيمة فنية ولغوية لا تقل على الآداب الأخرى على غرار الأدب الأندلسي و الأدب العربي، كما أن له القدرة على إظهار مقدرة الأديب الجزائري على توظيف فكرة المدينة بمنظور يضاهي الفكر المعاصر على الأقل من الناحية الفنية، وقد تم الاستعانة في التعاطي مع هذا الموضوع بالمنهج السيميائي لأن خطواته الإجرائية تتناسب وجزئيات البحث، وقد قسمنا البحث إلى جزء نظري تم فيه التطرق إلى مفاهيم بعض مصطلحات مثل : الفضاء والمكان والمدينة، أما الجزء التطبيقي فتعرضنا فيه لأهم أعمال بكر بن حماد فيما يخص المدن العربية.

I. دلالة الفضاء :

"قد يكتسي الفضاء دلالات ورموز حضارية وإنسانية وقومية ووطنية وذاتية، تمكن أن تفك دلالة وتوالد مشكلة بذلك شبكة من ذكريات الطفولة الحميمة ونسيجا من أحلام المستقبل " (الحمادي، حميد، ٢٠٠٠، صفحة ٥٤).

وحسب ما جاء في كتاب "بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي" لحميد الحمادي أن للفضاء أبعاد حضارية كما أن الفضاء يرتبط بعناصر المشكلة للرواية ويؤثر فيها مثلما يستقبل مؤثراتها، وتبرز هذه المؤثرات المتبادلة خصوصا على مستوى اللغة الشخصية، و الحيز، وهذا حسب رأي جوليا كريستيفا.

كما أشار يوري لوتمان في آرائه عن الفضاء : "إلى منح عنصر الفضاء بعدا أساسيا و عاليا، حيث قرنه بمعنى ودلالة الحرية، وتصبح الحرية في هذا المضمار هي مجموع الأفعال التي يستطيع الإنسان أن يقوم بها دون أن يصطدم بحواجز أو عقبات، أي بقوى ناتجة عن الوسط الخارجي لا يقدر على قهرها أو تجاوزها (ت، سيزاقاسم، ١٩٨٦، صفحة ٧٠، ٦٩).

وفي الحقيقة فالباحث هنا يتجه اتجاهها أكثر انطلاقا حيث ربط بين الفضاء وتحرير التفكير من العوائق والمضايقات الخارجية التي من شأنها تشويه الإحياءات الحقيقية للفضاء .

II. مفهوم المكان وتداخل المصطلحات :

يعد غاستون باشلار من الأوائل الذين أسسوا لمفهوم المكان داخل النص الشعري وكان ذلك في مؤلفه الموسوم بـ: "شعرية الفضاء"، وقد عمل باشلار على تكريس روح الحميمة والألفة و الوداعة في تحديد تصور للمكان وتأتي ذلك في اعتبار المكان صورة فنية، وكان ذلك حين قال: " المكان الأليف الذي ولدنا فيه ومارسنا فيه أحلام اليقظة

وتشكل فيه خيالنا والمكانية في الأدب هي الصورة الفنية التي تذكرنا أو تبعث فينا ذكريات بيت الطفولة" (غاستون، ١٩٨٧، صفحة ٦)، فغاستون باشلار ينطلق في التأنيث لمفهوم المكان من أن هذا الأخير يتعدى إطاره الجغرافي ليتعدى إلى الجانب الوجداني والعاطفي التي ترتبط بأيام الطفولة الوديدة ويحيي الذكريات الخاصة والجميلة، وهذا ما يجعل الذات المبدعة أن تخلق صور فنية في النصوص الأدبية التي تعزز تلك الذكريات المتعلقة بالمكان واستئناس بها. ولم تتعد ماهية المكان في سياقها الأدبي والشعري عن مفاهيمها الفلسفية العميقة فالمكان في هذا السياق هو معطى يبالغ في التجريد أي أنه نظام مرن يمكن ربطه بعدة استخدامات مجازية كانت أو حقيقية واقعية على حسب ما تمليه ضرورات العمل الأدبي أو الشعري، أي هو "لا يقتصر على كونه أبعادا هندسية وحجوما، لكنه فضلا عن ذلك نظام من العلاقات المجردة، يستخرج من الأشياء المادية، الملموسة بقدر ما يستمد من التجريد" (منصور نعمان نجم الدليمي، ١٩٩٩، صفحة ٣١) فالناقد هنا يخطط مفهوم المكان من تقييد دلالة المتعلقة بالأحجام والأبعاد هندسية إلى تجريد هذه الدلالة ليستوعب جميع سياقات خيال والإلهام عند الأديب وتفتح له آفاقا رحبة الإبداع.

III. بين الفضاء والمكان:

ويستمر غاستون باشلار في مؤلف "جماليات المكان" في تعداد ميزات المكان في متون النصوص الأدبية، حيث يحدد مستويين للمكان ويميز بينهما: "معمارية المكان التي تعني الأبعاد الهندسية والجغرافية للمكان، إذ يتجلى المكان-المقام الأول- بوصفه كيانا هندسيا واقعيا، بحيث يعد البعد الجغرافي للمكان ممثلا لأبعاده المميز له، وشاعرية المكان التي تظهر وتجسد لنا المكان الأليف أو بيت الطفولة الذي يتسم بقيم الحماية والأمان والاحتواء، أي المكان الأليف" (غادة الإمام، ٢٠١٠، صفحة ٢١٩).

ونستشف من هذا التعريف أن المكان يمثل محورا أساسيا من المحاور التي تدور حولها نظرية الأدب وهو في الآونة الأخيرة لم يعد يعتبر الرقعة التي تقع فيها الأحداث في العمل الأدبي حيث أن المكان عبارة عن كيانات هندسية ذات أبعاد جغرافية، ولا يعتبر معادلا للشخصية في النص الأدبي فقط ولكن أصبح ينظر إليه على أنه أهم عناصر مشكلة للعمل الأدبي، وأصبح تفاعل العناصر المكانية وتضادها يشكلان بعدا إجماليا من أبعاد النص الأدبي.

هذا بالإضافة إلى أن المكان يعد إشكالية إنسانية إذا ما حرم منه العمل الأدبي، ولذا فإنه يكتسب قيمة خاصة ودلالة مأساوية بالنسبة لمواقف الحزن والأسى وحميمية والأليفة بالنسبة لذكريات الجميلة، ومما كان له الفضل في لفت نظر الباحثين لأهمية المكان في العمل الإبداعي. وهناك مسألة في غاية الأهمية وهي ارتباط المكان بمعلم سيروية الزمن، وقد تكلم عنها أحد نقاد البنائية قائلا: "إن الفضاء الجزأ يستدعي زمنا متقطعاً" (الحمادي، حميد، ٢٠٠٠، صفحة ٦٢) إن الفضاء وفق هذا التخطيط يلف مجموع النص الأدبي بما في ذلك أحداثها التي تتضمن في الخطاب الأدبي لأن هذه الأحداث تفترض دائما استمرارية المكان وهذا لا يعني أن المكان مكون من الأحداث، ولكنه فقط يؤطرها، أنه موجود بالضرورة أثناء جريان الوقائع.

إن التمييز بين الفضاء والمكان لم يعالج بشكل واضح في الدراسات البنوية، فإن ملامح هذا التمييز يمكن أن تفهم من خلال هذا المقطع: "إذا نحن بحثنا عن مقدار التردد والإيقاع والنظام. وخاصة عن سبب التغيرات المكانية ما

، فإننا سنكتشف إلى أي حد تكون هذه الأشياء كلها ضرورية لتأمين وحدة الحكمي و حركته في آن واحد كما سنكتشف أيضا مقدار تآزر الفضاء مع عناصره الأخرى المكونة له" (الحمداني، حميد، ٢٠٠٠، صفحة ٦٢) .

VI. تعريف المدينة:

١. لغة:

لا تختلف معاني المدينة في اللغة عن بعضها البعض، فقد ورد ذكرها في معجم لسان العرب لابن منظور في مادة (م.د.ن) قوله: « مدن بالمكان :أقام به ومنه المدينة وهي فعلية»... [والجمع مدائن ومدن، ويقال للأمة مدينة أي مملوكة» (ابن-منظور، ١٩٩٠، صفحة ٤٠٢)، وتشترك في ذلك أغلب المعاجم العربية فهي تحمل معنى الإقامة بمكان والنزول فيه، وتطلق "المدينة" على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، غلبت عليها « (جمع اللغة العربية، ٢٠٠٤، صفحة ٨٥٩)، ويقصد بها مدينة يثرب الاسم السابق لمدينة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم. ونستطيع القول: « تمدن الرجل تخلق بأخلاق أهل المدن، وانتقل من حالة الخشونة والبربرية والجهل إلى حالة الظرف والأنس والمعرفة» (بطرس-البستاني، ١٩٨٧، صفحة ٨٤٣)، وعليه فالتمدن يمثل ظاهرة اجتماعية يتميز بها الفرد، إذ ينتقل من حالة البداوة والجهل إلى حالة الحضرة والرفق.

و المدينة «يمكن أن تكون اشتقت من دين أي ملك بوصف المدينة تشترط وجود الملك والسلطان أو الوالي على الأقل عكس القرية» (عبد-القادر-بوعرفة، ٢٠١٣، صفحة ٦٩)، معنى ذلك أن المدينة تفترض وجود الحاكم الذي يسيّر شؤونها.

كما أن مصطلح المدينة ورد ذكره في القرآن الكريم في العديد من السور والآيات فنجد في قوله تعالى: « قال فرعون أأنتم به قبل أن آذن لكم، إن هذا لكم مكرتموه في المدينة» (سورة-الأعراف- الآية ١٢٣). وهذا يحيلنا إلى موسى عليه السلام، وقوله تعالى « وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه» (يوسف- الآية ٣٠) فإن الحديث جاء مقتربا بالنبي يوسف عليه السلام، وقوله تعالى « وما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلوا عن رسول الله » (التوبة- الآية ١٢٠). والخطاب في هذه الآية كان موجها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي موضع آخر يقول سبحانه وتعالى « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى » (سورة-القصص- الآية ٢٠)، فالمدينة إذن ذكرت في مواضع عديدة من القرآن الكريم، كما ذكرت مدن بأسمائها نحو مصر مكة، بابل، الأرض المقدسة والمقصود بها فلسطين. وعلى هذا الأساس فإن موضوع المدينة ضارب بجذوره وله ركائز عقائدية، كما يلاحظ أنها لم تتناول على مستوى ضيق، وإنما نوقشت ضمن مفاهيم عديدة.

٢. اصطلاحا:

والحديث عن المكان هو حديث عن المدينة في حد ذاتها، حيث تعددت التعاريف وتنوعت حول مصطلح المدينة إذ تعني «انتماء حد معين من السكان إلى موقع جغرافي متميز، يتفاعلون على ظاهرة اجتماعية متعددة الوظائف،

قوامها إدارة وطبقات من السكان يتوزعون وفق صفقات اقتصادية وثقافية في إطار قانوني ينظم العلاقات والأفعال» (ياسر_عابدين، ٢٠١٢، صفحة ٦٥).

فالمدينة إذن تدل على مرتبة متسامية تجتمع فيها ظواهر وخصائص تميزها كرقعة جغرافية تضم فئة من المجتمع ، يؤثرون ويتأثرون ضمن إطار قانوني يسير تلك الفئات.

كما نجد ورود مفاهيم للمدينة لدى فلاسفة الإسلام وكان جلها مرتبط بالحكم والمحكوم إذ يقول الفارابي: «إن المدينة لا يتم أمرها إلا بأن يكون فيها رؤساء ومرؤوسون، فالرؤساء مثل الأفاضل وذوي التجارب، والمرؤوسون كل من دون هؤلاء من الصبيان والشبان والجهال» (عبد_القادر_بوعرفة، ٢٠١٣، صفحة ٧٠).

وإذا كانت المدينة تحيل إلى التجمع السكاني الذي يفترض الحكم والسلطة فالمصر يشير إلى المعنى نفسه يقول التّاهناوي: «المصر الحد الصحيح المعول عليه أنه كل مدينة ينفذ فيها الأحكام ويقام بها الحدود» (عبد_القادر_بوعرفة، ٢٠١٣) كما أن الحديث عن المدينة يشير إلى المكان إذ يعرف "يوري لوتمان" هذا المصطلح على أنه «مجموعة الأشياء المتجانسة من الظواهر والحالات والوظائف والأشياء، والصور، والدلالات المتغيرة، التي تقوم بينهما علاقات شبيهة بالعلاقات المكانية المألوفة العادية مثل الامتداد والمسافة» (سالم المعوش ، ص ١٣٢).

فالمدينة إذن، ليست امتدادا جغرافية لها حدود وفقط، بل هي تتبع لتغيرات تتحكم في المكان، كون المدينة مظهر من مظاهر الإبداع الإنساني، لتصبح عندها مرآة لكل أفعال الفرد وتحركاته وسط حيز مكاني أطلق عليه اسم "المدينة".

V. نماذج عن الفضاء المدني العربي في شعر بكر بن حماد التاهرتي :

١. ترجمة لحياة الشاعر بكر بن حماد التاهرتي :

هو أبو عبد الرحمن بكر بن حمّاد بن سهر (أو سهل) بن اسماعيل الرّثانيّ التاهرتيّ، ولد في تاهرت (الجزائر اليوم) ، نحو سنة ٢٠٠هـ (٨١٥-٨١٦ م) و نشأ فيها .

في سنة ٢١٧هـ انتقل بكر بن حمّاد إلى القيروان و قرأ فيها على عون بن يوسف الخزاعي (ت ٢٣٩هـ) و سمع من سحنون (ت ٢٤٠هـ) ، ثم سار وشيكا إلى المشرق و قصد بغداد فأخذ عن نفر من علمائها و لقي نفرا من أدبائها. و يبدو أنّه تكسّب في بغداد بالشعر .

و في سنة ٢٧٤هـ (٨٨٧ م) نجد بكر بن حمّاد ثانية في القيروان يتصدّر لتدريس العلم و الأدب. و يبدو أنّ اهتمامه الأوّل كان التكسّب بالشعر: مدح الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبيّ (٢٦١-٢٩٨ هـ) ، و كان طاغية سقّاكا للدماء، و مدح أحمد بن سفيان بن سودة. و كان بكر بن حمّاد يتردّد في أثناء ذلك على بلده تاهرت، و قد اشترك في الفتنة التي نشبت سنة ٢٨٢هـ (٨٩٥ م) على أبي يوسف بن محمّد سادس الأئمة الرّسميّين في دولة بني رستم في تاهرت .

و وشى بعضهم ببكر بن حمّاد إلى الأمير إبراهيم بن أحمد، فغادر بكر القيروان راجعا إلى تاهرت-و كان معه ابنه عبد الرحمن- سنة ٢٩٥هـ (٩٠٧ م) . و في أثناء الطريق خرج عليه اللصوص، قرب قلعة ابن حمة (شمال تاهرت) ، فقتل ابنه عبد الرحمن و جرح هو جرحا أودت به بعيد ذلك في شوال من سنة ٢٩٦هـ (صيف ٩٠٩ م) ، و دفن

في داره في آرشقول بجويّ (جنوبي) مدينة تيهرت .

يبدو أن بكر بن حمّاد كان رجلا متقلّب الهوى مثل معظم الذين يتكسّبون بالشعر: هجا عمران بن حطّان الخارجي (ت ٨٤ هـ) لأنّ عمران كان قد أثنى على عبد الرحمن بن ملجم الذي قتل الإمام عليّاً [كرم الله وجهه]، و هجا المعتصم العباسيّ و قال فيه «فليس له دين و ليس له لبّ» (عقل) . ثمّ عاد فمدح المعتصم و حرّضه على دعبل الخزاعيّ الشيعيّ. و ثار على الإمام الإباضي أبي حاتم يوسف بن محمّد الرستميّ ثمّ عاد فاعتذر إليه . و كان من المشتغلين بالحديث؛ و لكنّ شهرته إنّما هي في الشعر. و هو شاعر مجيد متفنّن في أبواب الشعر متين السبك حسن الديباجة سهل التراكيب فصيح الألفاظ يجيد في القصائد الطوال و في المقطّعات. و فنون شعره المديح و العتاب و المحاء و الرثاء و الوصف و الغزل و الزهد (محمد بن رمضان شاوش، ١٩٦٦، ص ٤٣) .

٢. الفضاء المديني الجزائري في شعر بكر بن حماد التاهرتي :

وقد سعى بكر بن حماد التاهرتي إلى إعمال موضوع المدينة في نصوصه الشعرية مستغلا معرفته وصلاته بالمدن الجزائرية التي مر بها في أثناء حله وترحاله، وفي هذه الأبيات الشعرية نجده يصف برد مدينة "تيهert" مسقط رأسه وملهمته حيث يقول (محمد بن رمضان شاوش، ١٩٦٦، ص ٦١) :

وأطرف الشمس بتاهرت	ما أخشن البرد و ريعانه
كأنّها تنشر من تحت	تبدو من الغيم إذا ما بدت
تجري بنا الريح على السمّت	فنحن في بحر بلا
	لجّة

كفرحة الذمي بالسبت	نفرح بالشمس إذا ما بدت
--------------------	------------------------

فهو في هذه الأبيات يتفنن في إغداق الوصف الأثير على مدينته "تيهert" مستعينا بمعجم الطبيعة الفاتن والذي اتخذ منه بعدا إشاريا يدلل على جمال المدينة، ومدى تعلق الشاعر بها، فنجد أن فكرة المدينة تستحوذ على وجدان الشاعر إلى درجة الإعمال الموجودات الطبيعة لتفريغ الشحنة العاطفية لتعبير عن هذا الارتباط مع مدينته، موظفا في ذلك قدراته اللغوية انطلاقا من تلاعب بالمفردات إلى تراكيب التي غلب عليها طابع الخيال والبيان والتي تعداه في بعض الومضات إلى الرسم بالكلمات وذلك حين تعجز إمكانيات اللغة على التعبير والوصف، ناحتا صورة غاية في الروعة والجمال .

وفي قصيدة تعد آخر ما قاله من شعر يستمر الشاعر في موضوع مدينته "تيهert" لكن هذه مرة حزنا وآلما على ما لحق بها من دمار وخراب وذلك في قوله: (محمد بن رمضان شاوش، ١٩٦٦، ص ٩٠)

زرنا منازل قوم لم	إنّا لفي غفلة عمّا يقاسونا
يزورونا	
لو يطقون لقالوا: الزاد،	حل الرحيل فما يرجو المقيمونا
ويحكم	

وفعلنا فعل قوم لا يموتونا

الموت أجحف بالدنيا

فخربها

فالحاملون لعرش الله باكونا

فالآن فابكوا فقد حق البكاء لكم

لو كان جمع فيها كنز قارونا

ماذا عسى تنفع الدنيا

مُجمِعها

وفي هذه الأبيات يقدم لنا الشاعر صورة عن الدمار الذي أصاب مدينة "تيهت" التي لم تعد تصلح للحياة والعيش، فأهلها رحلوا عنها بعد أن كانت قبلة للعلماء والناس، ففضاء مدينة "تيهت" الذي عبر عنه الشاعر والذي تمثل في إحساسين متناقضين زاد في حسرة الشاعر عن حال مدينته، الأول: الماضي الجميل الذي يمثل الرقي والتحضر والإنسانية، والثاني يمثل التوحش والبربري، وهذا ما أدّى إلى تزايد الشعور بالتعاسة والكآبة والاغتراب عن مدينته التي غدت أثرا بعد عين.

ولم يكن الشاعر بكر بن حماد التاهرتي يحمل مدينته "تيهت" فقط في وجدانه بل كان يحمل وطنًا بقدر إقليم الجزائر لذا نجد أنه يذكر مدنا جزائرية قديمة، كما جاء في هذه الأبيات حين قال: (محمد بن رمضان شاوش، ١٩٦٦، ص ٧٤)

ورماحه في العارض

سائل زواغة عن فعال سيوفه

المتهلل

والخيل تمرغ بالوشيح

وديار نفزة كيف داس حريمها

الذبل

وسقى جراوة من نقيع

عمت مغيلة بالسيوف مذلة

الحنظل

فالشاعر هنا يقيس القوة والشجاعة بمقدار المدن والقبائل التي يتم السيطرة عليها، فالفضاء المديني العربي - وحسب منطق الشاعر - هو معيار قوة وتفوق ورمز عز وسؤدد فشاعر يجيد توظيف تقنية التحسيم والتجسيد فهو يدعو لمساءلة مدينة "زواغة" و"ديار نفزة" ويتكلم عن "مغيلة" و"جراوة" والتي قرنها في كل مرة بقوة السلاح وقدرة الخيل، ويحاول الشاعر هنا التعبير عن مناطق النفوذ واتساعها بامتداد هذا الفضاء المديني الجزائري، وهذا يعبر على ذكاء وعبقرية الشاعر اللغوية والأدبية.

٣. الفضاء المديني العربي في شعر بكر بن حماد التاهرتي :

لقد كان لرحلات بكر بن حماد التاهرتي وأسفاره في المدن العربية وحواضرها التأثير البالغ على رصيده الشعري من حيث اللغة والثقافة التي تحلى بها، حيث استحضّر عدة مدن عربية ووظف هذا الفضاء المديني تارة بالتصريح بالفضاء المديني وتارة أخرى بالتلميح واستعاضة عن هذا الفضاء بذكر الامتداد الوطني أو البلاد التي ينتمي إليها أو وصف معلم يحيل إلى هذا الفضاء، وهذا ما يحيلنا إلى قول بكر بن حماد التاهرتي: (علي فكري، دت، ص ١٩٠)

هدمت ويلك للإسلام أركاننا

قل لابن ملجم والأقدار غالبية

وأول الناس إسلاماً	قتلت أفضل من يمشي على
وإيماننا	قدم
سن الرسول لنا شرعاً وتبياناً	وأعلم الناس بالقرآن ثم
	بما
أضحت مناقبه نوراً وبرهاناً	صهر النبي ومولاه
	وناصره
مكان هارون من موسى بن عمراننا	وكان منه على رغم الحسود
	له
فقلت: سبحان رب العرش سبحاناً	ذكرت قاتله والدمع منحدر
يخشى المعاد ولكن كان	إني لأحسبه ما كان من
شيطاننا	بشر
وأخسر الناس عند الله	أشقى مراد إذا عدت
ميزاننا	قبائلها
على ثمود بأرض الحجر	كعافر الناقة الأولى التي
خسراننا	جلبت
قبل المنيّة أزماننا	قد كان يخبرهم أن سوف
فأزماننا	يخضبها
ونال ما ناله ظلماً وعدواناً	فلا عفا الله عنه ما
	تحمله
إلا ليلغ من ذي العرش رضواننا	يا ضربة من تقى ما أراد
	بها
فسوف يلقي بها الرحمن	بل ضربة من غوى أوردته لظى
غضباننا	
إلا ليصلي عذاب الخلد	كأنه لم يترد قصداً
نيراننا	بضريرته

فالشاعر هنا يشير إلى مدينة الكوفة بالعراق التي كانت مثال للرفي والتطور الحضاري، وقد اتخذها الشاعر معادلاً موضوعياً لحادثة مقتل الخليفة علي كرم الله وجهه من حيث فظاعة الجرم والتجرؤ على المقدس موظفاً في ذلك البعد المكاني وهو هنا عبارة عن فضاءين حضاريين أولهما: بلاد حجر وتقع بين الحجاز وتبوك وهي مكان لقوم ثمود

،والثاني هو مراد أرض أهل بن ملجم ،ونستشف هنا لجوء الشاعر إلى استعمال فضاءات المدن العربية لتقريب المعنى للمتلقى من خلال استغلال المخزون الثقافي والديني له وإعطاء صورة كاملة عن الدلالة المراد توصيلها من خلال فكرة المدينة أو المكان العربي في متن القصيدة.

كما نجد الشاعر يستمر في نفس الموضوع الأبيات السابقة، حيث يقول فيها: (النوري ، ، ٣٨٠ / ٥ اطلع عليه يوم: ٢٠٢٢/٠٦/٠٤)

مصيبتها حلت على كل مسلم

وهزّ عليّ بالعراقيين

لحيّة

ويخضبها أشقى البريّة

فقال: سيأتيها من الله حادث

بالدم

لشؤم قطام عند ذاك ابن ملجم

فباكره بالسيف شلت

بمينه

تبوّأ منها مقعداً في

فيا ضربةً من خاسرٍ ضلّ سعيه

جهنّم

وإن طرقت فيه الخطوب

فهاز أمير المؤمنين

بمعظم

بحظّه

حلاوتها شبيت بصاب

ألا إنّما الدنيا بلاءٌ

وعلقم

وفتنه

عن ذلك اتخذ الشاعر من العراق في قوله: "العراقيين" امتداداً للفضاء المديني العربي الذي يعبر عن تجمع للمسلمين متخذاً من مكان وقوع الحادثة ومن ثمة انتشارها في أرجاء البلاد الإسلامية معلماً مهما في بناء قصيدته وذلك من أجل التأثير في مشاعر المتلقي لأن المدينة في هذه الحالة تحيل على حادث تاريخي ذو أبعاد إنسانية ،فالشاعر استطاع أن يوظف البعد المديني للعراق تصريحاً تعميماً لتعبير عن انتشار أثر هذه الحادثة ومدينة "الكوفة" التي كانت مسرحاً للحادثة ضمناً و تلميحا ونجد أن الشاعر قد نصب هذه المدينة من خلال فضاء أوسع وهو كل العراق أيقونة للفتنة وانفراط عقد وحدة المسلمين ومنه خراب الأمة ،وكل ذلك من أجل تدعيم حججه وذلك بإقناع المتلقي ببشاعة فعلة بن ملجم.

ومن المواضيع التي ألمح فيها بكر بن حماد التاهرتي إلى الفضاء المديني العربي عن طريق ذكر معلم جغرافي يوحي للمتلقى ويستدرجه إلى استكشاف المدن العربية وهذا ما نستشفه في هذه المجموعة من الأبيات حيث يقول فيها: (محمد بن رمضان شاوش، ١٩٦٦، ص ٧٠):

ويمشي على الأرض العريضة دعبل

أيهجو أمير المؤمنين

ورھطه

أما والذي أرسى ثبيراً ورهطه
ولكن أمير المؤمنين
بفضله
وعاتني فيه (حبيب) وقال
لي
وإني وإن صرفت في الشعر
منطقي

لقد كانت الدنيا لذاك تنزل
يهم فيعفو، أو يقول
فيفعل
لسانك محذور وسمك
يقتل
لأنصف فيما قلت فيه وأعدل

وقد أورد الشاعر في متن هذه القصيدة اسم جبل "ثبيراً" وهو في موضع القسم وقد تعودت العرب أن لا تقسم إلا بما هو منزّه ومقدس، ولقد تأتت قداسة هذا الجبل من مكانه وموقعه الذي يتوسط مكة المكرمة "أم القرى" ومنى أحد المواقع التي يقصدها الحجاج، ولقد لجأ الشاعر إلى الاستعانة بالفضاء المدني العربي المتمثل في مكة المكرمة ومنى وكان ذلك في موقع القسم دون ذكرهما واستعاضة على ذلك بذكر جبل "ثبيراً" الذي يعتبر هنا كنظام علاماتي يقود إلى فضاء مدني مزدوج المكان وكل ذلك بغية استفزاز الحمولة المعرفية والثقافية للمتلقي من أجل الوصول إلى هذا الفضاء، وكذلك من أجل الاقتصاد اللغوي فذكر اسم الجبل يغني عن ذكر المدينتين .

وفي هذا البيت نلاحظ أن بكر بن حماد التاهرتي لجأ إلى أسلوب المباشرة والمجاهرة بذكر الفضاء المدني العربي مصرحاً بمدينتين هما "زويلة" و"برقة" العربيتين وذلك في قوله : (محمد بن رمضان شاوش، ١٩٦٦، ص ٩١).

الموت غادر دعبلاً
بزويلة
في أرض برقة أحمد بن
خصيب

وفي غمرة مشاعر ألم والحزن لم يجد الشاعر بكر بن حماد إلا البعد الفضاء المدني العربي لتعزيز مشاعر الحسرة لديه وكذا كسب تعاطف المتلقي وزيادة في انفعاله من خلال صب جام غضبه على المدينتين "زويلة" و"برقة" وصفهما بالغدر والنحس مؤسساً لثقافة ربط المدن ببعض المشاعر سواء السلبية كالقتل والموت والخراب على غرار ما حدث في هاتين المدينتين والتي التصقت بهما لا بمن قام بهذه الفعل وأبطالها ومنه نخلص إلى أن الشاعر قد اتخذ من هاتين المدينتين رمزا إشارياً يوحي بسوء الطالع والخسة والخيانة بمجرد ذكرهما .

وفي هذه الأبيات يتطرق الشاعر بكر بن حماد إلى تقنية ذكر الأوطان التي تحيل إلى المدن وفضاءاتها وذلك حين قال: (عبد الرحمن الجيلالي، ١٩٦٥، ص ٢٤٢-٢٤٣).

و مؤنسة لي بالعراق
تركتها
و غصن شباي في الغصون
نضير
فقلت، كما قال النواصي قبلها
عزيز علينا أن نراك
تسير

فطال عليّ الليل و هو قصير

فقلت: جفاني يوسف بن

محمّد

و لكن أتت بعد الأمور أمور

أبا حاتم، ما كان ما كان بغضة

فداريتهم، و الدائرات

و أكرهني قوم خشيت

تدور

عقابهم

إذا ما عفا الإنسان وهو قدير

و أكرم عفو يؤثر الناس أمره

وفي هذه الأبيات نجد بكر بن حماد قد اتبع أسلوب التلميح في تعامله مع موضوع المدينة، أي لم يخص مدينة بعينها بل أجمل كامل الفضاء الجغرافي للعراق، وكأنّ لسان حاله يقول: أن جميع فضاءات مدن العراق لديها نفس ملامح والصفات التي يريد الشاعر أن يستحضرها في نصه، وهذه التقنية التي من شأنها أن تجعل المتلقي يستدعي حصيلته المعرفية حول مدن وحواضر العراق من أجل بلوغ المعاني التي يتقصدها الشاعر، أو يريدّها المتلقي ذاته، وهذه تقنية سبق الإشارة إليها في أحد النماذج السابقة.

- وفي هذه الأبيات نجد أن الشاعر قد وظف فضاء مدينة تيهرت توظيفاً نقدياً حيث عقد مقارنة بين مدينتين إحداهما تمثل الموطن والمآل وهي مدينة تيهرت من خلال إعلاخا مدينة السعد و الابتهاج وذلك يتجلى في الاعتراف الصريح باستبداد الشوق والحنين إليها وهي في موضع الفخر والاعتزاز، ومدينة تنس التي نعتها بأقبح وأقذع الصفات من قبيل ذات النحوس ومدينة البراغيث وهي في الموضع اشمئزاز وذلك حين قال في الشكوى من "تنس" و الحنين إلى "تيهت": (علي دبوز، محمد. (د ت، ص ٢٧٣):

و أصبحت عن دار الأجابة في أسر

نأى النوم عني و اضمحلت عرى

الصبر

و أسلمني مر القضاء من القدر

وأصحت عن تيهرت في دار

غربة

يساق إليها كل منتقص العمر

إلى تنس ذات النحوس فإنها

و طالها المنحوس صمصامة الدهر

هو الدهر و السياق و الماء حاكم

و يأوي إليه الذئب في زمن

بلاد بها البرغوث يحمل

الحر

راجلا

وليقرب الشاعر الوضع للمتلقى فقد استعان الشاعر بالبعد البلاغي حين قام الشاعر بتوظيف صورتين بياينتين لتعبير الواقع المزري الذي تعيشه مدينة تنس فصورة الأولى هي كناية في قوله: (بلاد بها البرغوث يحمل راجلا) وهي كناية على كثرة الأوساخ وانعدام النظافة وانتشار الحشرات الضارة، ويريد الشاعر هنا توضيح أسباب نقمه ونقده للمدينة، وأما الصورة الثانية فقد أتت في نفس السياق البلاغي السابق وذلك في قوله: (و يأوي إليه الذئب في زمن الحر)

وهي أيضا كناية على انعدام الأمن وأنها مرتع للحيوانات الضالة وجاءت لتؤكد استمرار الشاعر في صب جامه غضبه على المدينة وضمينا استحضار واقع مخالف تعيشه مدينة تيهرت من أمن ونظافة وازدهار .

خاتمة:

وبعد انتهائنا من هذا العمل البحثي و استعراضنا لتفاصيله تمكنا الوقوف على جملة من الاستخلاصات والنتائج والتي يمكن فصلها في العناصر الآتية:

- ١ - محافظة الشاعر بكر بن حماد على بناء التقليدي للقصيدة العربية ومتمثل في عمود الشعر رغم الثورة التي أحدثتها الشعر الأندلسي على هذا البناء من خلال قصائد الموشحات ونظام الأسماط و التدوير الشعري .
 - ٢ - تنوع الأغراض الشعرية التي طرقها الشاعر بكر بن حماد حين تعرض لموضوع المدينة وعلى سبيل التمثيل نجد المدح وثناء المدن والوصف والاعتذار...
 - ٣ - طريقة وأسلوب تعاطي الشاعر بكر بن حماد مع تيمة المدينة وذلك تبعا للحالة النفسية لديه فتارة تغلب عليها غصة الحزن والألم عند الرثاء أو الاغتراب وتارة أخرى مفعمة بالفرح والأمل عند المدح والوصف .
 - ٤ - بروز مظهر التجديد في شعر بكر بن حماد من تعامل مع موضوع المدينة التي كانت تعتبر خطأ حدثا آنذاك برع فيه شعراء الأندلس ثم انتقل إلى الشعر الجزائري القديم .
 - ٥ - ومن الأشياء التي تميز بها بكر بن حماد هي إضفاء خصوصية على رمزية المدن العربية والجزائرية من خلال ربطها بسياقات اجتماعية وسياسية وتاريخية وثقافية... وحتى جغرافية ومناخية.
 - ٦ - تفتق ثقافة بكر بن حماد من انفتاحها وذلك راجع إلى استفادته من حياة الحل والترحال التي طبعت حياته وزيارته لأهم الحواضر العربية وكذا مخالطته لحكامها و لعلمائها ومعايشته لأبرز المواقف السياسية فيها.
- القرآن الكريم .

- قائمة المصادر والمراجع:

- ١ - بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، د ط ، ١٩٨٧، باب (الميم) .
- ٢ - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٠، مادة (مدن)، مج ١٣ .
- ٣ - علي دبوز، محمد. تاريخ المغرب الكبير. (د ت). مطابع عيسى الحلبي.
- ٤ - حمادي حميد، بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي ٢٠٠٠ .
- ٥ - سالم المعوش، المدينة العربية بين عولمتين، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط ١، دت.
- ٦ - عبد القادر بوعرفة، المدينة والسياسة (تأملات في كتاب الضروي في السياسة لابن رشد)، عالم الكتب الحديث. للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط ١، ٢٠١٣ .
- ٧ - علي فكري، الخلفاء الراشدون أحسن القصص، مكتبة رحاب، الجزائر، ج ٣ ، د ط، د ت.
- ٨ - غادة الإمام، غاستون باشلار جماليات الصورة، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠١٠.

٩- غاستون باشلار: جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط ١٩٨٧، ١.

١٠- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط ٤، ٢٠٠٤، مج ١.

١١- محمد بن رمضان شاوش، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، المطبعة العلوية، مستغانم، الجزائر، ط ١، ١٩٦٦.

١٢- منصور نعمان نجم الدليمي: المكان في النص المسرحي، دار الكندي للنشر، الأردن، ط ١٩٩٩، ١.

١٣- ميوري لوتمان /ت سيزا قاسم، مشكلة المكان الفني مجلة (ألف) ع ٦، ١٩٨٦.

١٤- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٥ / ٣٨٠، الموسوعة الشاملة، <http://www.islam port.com>، b/٥/adab.html اطلع عليه يوم: ٢٠٢٢/٠٦/٠٤.